مجلة علوم التربية

دورية مغربية فصلية متخصصة

ملف حول

نقد بيداغوجية الادماج
التربية والقيم

العدد الثامن والأربعون - يوليوز 2011

الكفايات والقيم: أية علاقة؟

عمر بيشو / باحث في علوم التربية

يقتضي بالتالي، افتراض تساؤلات كثيرة من قبيل:

- ماذا يعني كون المرء كفءا؟ أن يكون مؤهلا، قادرا على الإنجاز، عارفا كيف يتكيف؟ أن يمنح معنى خاصا لمهنته؟ أن ينخرط في قيم مشتركة؟ ؛

- هل الفعل الكفائي يترجم فعلا جودة التصرف البشري؟؛

- كيف تعالج التربية على القيم في إطار راهن العلاقة بالمعرفة؟؛

- هل يستطيع النظر الكفائي أن يؤسس للمشترك القيمي مع الحفاظ على التعدد الثقافي؟..

بمعنى آخر، هل هي أزمة في البحث عن وجه عملي للسيرورة القيمية، وبالتالي أزمة في التدبير الكفائي؛ حيث بالموازاة مع ذلك نجد أن التفكير في الشأن القيمي يتداول من خلال الشأن الكفائي، أي من خلال مدخل المقاربة بالكفايات كمدخل ثان لهذا التجديد في استدعاء بعدها الإنساني؛ حيث نجد فليب جونيير Ph Jonnaert مثلا، يضفي طابعا اجتماعيا على الفعل الكفائي، مما يعني استحضار البعد القيمي في هذا الأخير باعتباره الموجه للمجتمع[1]؛ وفي نفس التوجه نجد جون ماري دوكوتيل Deketel M -J يتبنى حركة خامسة للعلاقة بالمعرفة،

التعامل مع القيم في المنهاج التربوي الذي يعكسه واقع القيم في كتبنا المدرسية، يمكن القول أنه لا يزال يدبر على مستوى بيداغوجيا المحتوى، بينما المفروض- ابيستيمولوجيا- تجاوز هذه الأخيرة مع تواجد بيداغوجيا الكفايات كمقاربة جديدة في تدبير راهن العلاقة بالمعرفة . وعليه، هناك مفارقة ما، تستدعي التأمل في موضوع هذا الوصل العلائقي بين مفهومين أريد لهما أن يتساكنا بشكل متوازي، وأن يمثلا في الوقت ذاته، مدخلي الجديد البيداغوجي (مدخل التربية على الكفاية والتربية على القيم)؛

1 – جونيير فليب، نحو فهم عميق للكفايات (الكفايات والسوسيوبنائية)، تعريب وتوضيب عبد الكريم غريب– عز الدين الخطابي،منشوراة عالم التربية، الطبعة الأولى 2005، ص:85.

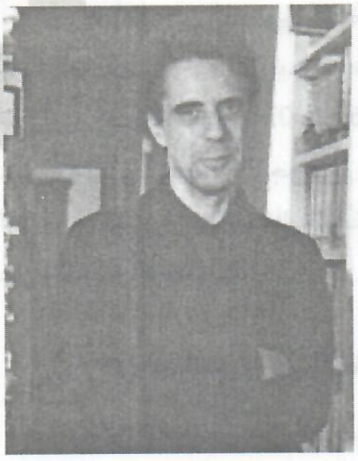

باعتبار المعرفة برهنة على حسن التواجد/ être-savoir تجاوزا لتهميش هذا البعد الإنساني في راهن التدبير الكفائي[2]. بلفظ آخر، هل يتحقق التجويد البيداغوجي للنظام التربوي المغربي في تدبير القيم من خلال مجرد العمل الكمي التجميعي لهذه الأخيرة، باستحضار كل مكونات المنظومة القيمية العالمية، أم أنها أزمة معرفة ترجع إلى «عدم الاستعداد والأهلية لتدبير الشأن الإنساني»- على حد تعبير المفكر كويشيرو ماتسورا[3]- حيث الفعل الكفائي في علاقته المميزة بالمعرفة، بإمكانه تدبير هذا الشأن مادام يعتبر «قيميا في جوهره»، بما أنه يعكس إرادة تجويد التصرف البشري، وبالتالي يحتاج فقط إلى إبراز السمة العملية القيمية لوجهه الإدماجي؟.

1 - ملاحظات حول تدبير الشأن القيمي في الشأن الكفائي

من الملاحظات الأساسية التي تم إبداؤها في هذا السياق:

- عدم إقدام «الكتاب الأبيض» على إعطاء تعريف للقيم على غرار عدم تعريفه للكفايات. كما أنه لم يقدم مبررا على تقسيمه الرباعي للقيم، ولماذا هذا التجزيء الذي يفيد أن القيم الإسلامية معزولة عن القيم الأخرى كالمواطنة وحقوق الإنسان.

- هناك تراجع واضح بخصوص الدعوة إلى الالتزام بتوظيف القيم في تحضير الدروس وبرمجة المواقف التعليمية والمجزوءات داخل الكتاب، والذي كانت قد أوصت به اللجان من قبل في الوثائق التمهيدية للكتاب الأبيض.

- سكوت الكتاب الأبيض عن البيانات التي انتهت إليها اللجنة «البيسلكية» ولجنة الاختيارات والتوجهات التربوية، في عملها الجاد لتفصيل قوائم القيم وتدقيق الارتباطات العامة بين أنواع القيم والكفايات، وكذا الارتباطات العامة بين المقاييس الاجتماعية والكفايات، كما سكت دفتر التحملات الإطار عن كل ذلك .

---

2 – كريستيان بوسمان، وآخرون، أي مستقبل للكفايات، ترجمة وتوضيب عبد الكريم غريب، منشورات عالم التربية، الطبعة الأولى 2007 .

3- الأمين العام لمنظمة اليونسكو، ينظر مقدمته في: بيندي جيروم، القيم إلى أين؟، ترجمة زهيدة جبور ، جان جبور، اليونسكو، قرطاج 2005، مطبعة دار النهار، بيروت، ص:12.

● أما على المستوى التنظيمي، فكان على «القيم»، أن تنتظر إلى حدود سنة 2006، حيث أصدرت وزارة التربية الوطنية والتعليم العالي وتكوين الأطر والبحث العلمي، المذكرة الوزارية رقم 88 بتاريخ 2006/06/05، وذلك من أجل إحداث وإرساء هياكل«مرصد القيم»، غير أنه على المستوى الإجرائي، لم يتم تحقيق المنتظرات المعلنة، في الوقت الذي تشهد فيه المدرسة المغربية من أشكال العنف والانحلال ما يؤكد شبه استقلال للنظام التربوي المغربي عن وظيفته الأخلاقية.

2 - من خصائص راهن الاشتغال الكفائي

يمكن القول أن من الخصائص المميزة لراهن الاشتغال الكفائي كونها تتمحور حول ثورتين:

1.2 – ثورة في العلاقة بالمعرفة

في الوقت الذي نجد فيه التقليد الموسوعي يراكم المعارف دون التساؤل حول ما إذا كان سيسعف ذلك الأشخاص في تدبير حياتهم خارج أسوار فضاء الاكتساب، نجد المقاربة بالكفايات في المقابل، تعتبر أن :

● المعارف ليست إلا أدوات للعمل، ومن ثمة، فالحرص ينبغي أن ينصب على استثمار التعلم لا المعرفة .

استعمال هذه الأخيرة وتوظيفها قابل للتعلم كالباقي .

● فالكفاية بالتالي، لم تأت لتضحي بالمعارف جملة وتفصيلا، وإنما لتصبغ عليها صبغة نوعية، تمنحها دينامية خاصة، تتوافق وتنويع العقل ذكائيا، من خلال جعل التربية أو التكوين يتمركز حول هذا الاتجاه ؛ بمعنى، التمركز أكثر حول الشخص، وليس مضمون المعرفة . بعبارة أخرى، تتوخى المقاربة بالكفايات مفهمة طرق التفكير والتفعيل العملي، والتي يمكن أن تكون قابلة للتحويل والإدماج من وضعية إلى أخرى ، داخل أو خارج فضاء الاشتغال على السواء، وبذلك تقوم الكفايات على تصحيح تموضع المعرفة من جديد[4] .

4 – عمر بيشو، ديداكتيك الكفايات والإدماج، منشورات مجلة علوم التربية، العدد 23،

2.2 – ثورة في العلاقة بالإنسان

يمكن استقراء ذلك من خلال مكانة الإنسان كفرد وكجماعة في راهن هذا النظر، وذلك بما أن:

- الكفاية ليست واقعية في ذاتها، وإنما تأخذ معناها في اللحظة التي يكون فيها توتر بين بنية الاستقبال في الذات العارفة وعملية إضفاء صورة دالة على المعطى المنبثق من الحدث في التقائه بالواقع؛ وعليه، يبقى المسلك هنا للدخول إلى حقل الكفاية هو المقاربة البنائية التي تؤكد على ضرورة الإقرار بوجود توتر غير قابل للاختزال لفهم الكيفية التي تستطيع الذات من خلالها أن تصير فاعلة في فهم واستيعاب وضعية تشكل بفعل هذا نفسه، عالمها الخاص؛ وبذلك تندرج الكفاية ضمن منظور يضفي الطابع الذاتي على القدرات بالاعتماد على وظيفة غير ملحوظة لكنها مطلوبة من أجل الوقوف على نتاج الممارسة[5].

- الكفاية تثبت واقعيتها بسبب اصطدامها والعالم الواقعي الذي تلتقي به من جهة ثانية، فمن هذا المنظور ليس الفرد وحده من يتمتع بمكانة جد متميزة، وإنما الجماعات والفئات الاجتماعية كذلك، بما هي حاملة ومدافعة عن مصالح غالبا ما تكون جد متنوعة ومتضاربة..

- قضية تنمية تسيير وتدبير الموارد البشرية في إخضاعها دائرة ما هو حميمي للضرورات الاجتماعية، وبالتالي طرح من جهة، المكانة التي تم تخصيصها أو التي مازلنا نحتفظ بها لبناء قيم الهوية والشخصية؛ ومن جهة أخرى، حيث في غياب هذه الأخيرة، كيف سيتمكن الفرد من الانخراط آجلا في مفاوضة جماعية؟؛ بعبارة أخرى، تمة أسئلة وتأملات تراجعية واضحة، يرتكز معظمها على تعارض يبدو قائما بين نمط تفكير ذي طابع إنساني (ضرورة احترام الفرد واحترام قيمه ودوافعه..) ونمط تفكير ذي نزعة نفعية (ضرورة وجود تناسب جيد بين الإنسان ووظيفته، ضرورة مساعدة الشخص على إدراك الأوضاع الخارجية بشكل أفضل..)[6].

---

5 – أي مستقبل للكفايات، مرجع مذكور، ص:174.

6– نفس المرجع، ص:177.

3 - لماذا ينبغي الرجوع إلى النظر الكفائي المقاصدي؟

بالرجوع إلى المناسبة المقاصدية، نجد أنها تكشف الأساس المعرفي للاشتغال الكفائي من خلال السمة التمايزية في تدبير التصرف البشري، وذلك من خلال انتهاض الشخص المناسب للفعل الكفائي المناسب ؛ حيث الغاية من النظر الكفائي في الحقل الثقافي الإسلامي هو «نفي العبث في الأفعال»، بمعنى الحديث عن قضية تجويد التصرف البشري من زاوية كفائية تراثية[7]. وعليه، فالسؤال الذي ينبغي طرحه بداهة، هو لماذا ينبغي الرجوع إلى النظر الكفائي المقاصدي؟. للإجابة على هذا السؤال، يقتضي الأمر دراسة علاقة القيم بالتنمية في النظر الكفائي؛ وذلك من خلال البحث في السقف المعرفي لأطروحة الواجبات الكفائية كسبيل للتنمية؛ حيث ضرورة إحياء الواجبات الكفائية المقاصدية كسبيل للانخراط في راهن النظر الكفائي، وحيث ضرورة إعادة قراءة المتن الفقهي الكفائي المقاصدي، لاستلهام أسس المشترك القيمي الحضاري: الكفاية المقاصدية في علاقتها بالشرط الإنساني مثلا؛ البعد الأخلاقي في تدبير العلاقة بالمعرفة؛ أي في ربط المعرفة بالقيمة في التصور المقاصدي الرشدي مثلا. وعليه، إن فكرة البحث في مجال التربية والقيم وعلاقتهما بالنظر الكفائي تقتضي:

1.3- رصد وتتبع الشأن القيمي في التدبير الكفائي، من خلال:

- راهنه التربوي: إضفاء البعد الإنساني والاجتماعي للفعل الكفائي؛
- تراثه التربوي وذلك في بعده الفكري المقاصدي، كمساهمة في التنظير للمشترك القيمي والتعدد الثقافي والحوار الحضاري[8].
-

2.3- رصد وتتبع آليات اشتغال التدبير الكفائي، وذلك من خلال ما يلي:

- التحديدات المفهمية للكفاية:

● التركيز على آليات الاشتغال ذات الطابع «العملي» دون الإمام بالضوابط؛ حيث إصلاح المعرفة يقتضي إيجاد بنية اشتغال وصلية بين الآليات والضوابط في التدبير الكفائي؛ بمعنى،

7- عمر بيشو، « الكفايات مقاربة أخلاقية » الاتحاد الاشتراكي الأسبوعي العدد 62.2003، ص: 13-19.

8- للتوسع أكثر في هذه الفكرة ، يمكن الرجوع إلى مقالنا: «الكفاية المقاصدية كآلية لتطوير الشرط الإنساني»، مجلة فكر ونقد، عدد68، أبريل 2005. أو «ديداكتيك الكفايات والإدماج» مرجع مذكور (فصل: تأصيل النظر الكفائي).

البحث في حدود آلية الإدماج العملية كمكون من مكونات الفعل الكفائي؛ أي من جهة مدى نجاعة هذه الاستعارة المفهمية في ترجمة الفعل الكفائي ومدى استيعابها لباقي الاستعارات والمكونات الكفائية الأخرى(التعبئة ،التحويل، المناسبة). ومن جهة أخرى، مدى تموقعه ورهانات النظر الكفائي(المعنى، التناظم، الأخلاق...).

● التركيز على بعض المكونات الكفائية دون الإلمام بالأخرى ك: المناسبة/ Pertinence؛ حيث المناسبة كمكمن للمقاصد والمصالح، وكوجه عملي قيمي في التدبير الكفائي، يقتضي توسيع دلالاته من خلال البحث في قضايا تجويد التصرف البشري، سواء في بعده المعرفي المقاصدي (الكفاية المقاصدية عند الشاطبي، أو البعد الأخلاقي القيمي في تدبير العلاقة بالمعرفة عند ابن رشد...)، أو في بعده المعرفي الكوني المعاصر (تمفصل الأخلاق بالمهارة ، وكذا البعد السوسيوثقافي في الفعل الكفائي...).

- **بنية الكفاية :**

التركيز على الوجيه المعرفي(ما يتم من خلاله معيرة المعارف و التمشيات التي ينبغي تحريكها أو تأسيسها) دون الوجيه السوسيووجداني (ما يدفع المرء للانخراط في المهمة مضفيا عليها صبغة وجدانية وعاطفية) والوجيه التحويلي(ما بموجبه يحيل إلى إمكانية القدرة على إعادة معرفة الوضعيات بالنسبة لمدى ملاءمة تلك المعارف والتمشيات) بوصفهما وجيهات قيمية، إن تصريحا أم تلميحا.

3.3- رصد وتتبع رهانات التدبير الكفائي

1.3.3- رهان الأخلاق:

الرهان الأخلاقي للنظر الكفائي قائم على تجاوز البعد اللاإنساني في علاقة القوى، الذي كرسه النموذج التايلوري، إنه رهان أخلاقي عام في هذا التمفصل الذي يتعين التفكير فيه بين العامل والمنظمة المشغلة له[9]. إنه كذلك، وكما هو في حضور مشروع بيداغوجي، بوصفه مشروعا يتجه نحو المجتمع المحلي والكوني معا ؛ حيث السؤال الذي يمكن طرحه باستمرار، هو: أية كفايات يمكن أن تكون ضرورية، ولماذا ؟ ما الشخصية التي نريد تكوينها؟ غنية بأية قيم؟؛ هكذا ينبغي العمل على أساسين أخلاقيين :

9- أي مستقبل للكفايات، ص:172.

أ - جعل التربية والتكوين في خدمة تنمية الشخصية الإنسانية، الاجتماعية(المحلية والكونية) ؛

ب – العمل على تمفصل الأخلاق ب» حسن الأداء / faire-savoir « أو «أخلاق المصلحة» بالمعنى المقاصدي للعبارة.

3.2.3- **رهان التناظم/** Interdisciplinarité:

إنه كذلك وفي إطار إعادة النظر في قضية العلاقة بالمعرفة كنتيجة لإعادة النظر في قضية الذكاء، حيث بموجبه أصبحت المعارف مجرد موارد للتعبئة والتحويل، مواجهة وإكراهات مفاجآت اللايقين، يتم الشروع في التفكير راهنا في آلية التناظم كمدخل لإصلاح الفكر معرفيا وأخلاقيا؛ حيث نقف على بعض من رهانات الحداثة اتجاه «النظر الكفائي» عموما، و«النظر الكفائي المقاصدي» بوجه خاص، بوصفه مدخلا فاعلا إيجابيا في التجاوب وهذه الرهانات المرتبطة براهن الحداثة، حيث ضرورة وضعها في قلب تجديد الخطاب الديني تربويا، ضمن أهداف تكوين شخصيات ما، وذلك من خلال:

- العمل على تفعيل نقل فعلي للنظر الكفائي (كفايات ثقافية، وطنية، كونية)؛

- العمل على تقصيد هذه الكفايات، مانحين إياها تحكمات حقيقية حول الفهم والاستيعاب للعالم الاجتماعي، المحلي والكوني؛

1.1.1.3.- معالجة القيم من خلال النظر الكفائي

● جعل القيم في صلب الاشتغال الكفائي، بمعنى إمكانية استدماج القيم كموارد للتعبئة، وهو المراد من وضع القيم كمرتكزات ثابتة كما أعلن عنها الميثاق الوطني للتربية والتكوين.

● جعل القيم في صلب الاشتغال الكفائي، يعني كذلك تفعيل أسس الاشتغال الكفائي المتمثل في أساس المناسبة، كمكون كفائي في المقاربة الكفائية: «التمكن كفائيا من إدماج الموارد المعرفية في جعلها تتواجه ووضعيات مشابهة بشكل مناسب»، وهنا تبدو العلاقة بين الكفاية والقيم واضحة وجلية.

● المواجهة المناسبة: المناسبة كمسلك من مسالك المعنى وكمسلك من مسالك التقصيد(تفعيل المقاصد)؛ وباعتبارها مصلحة، هل يمكن أن تكون مسلكا من مسالك القيم؟.

2.1.1.3.-إمكانية التعامل مع القيم في راهن العلاقة بالمعرفة من خلال بعد تناظمي تكاملي

إن تحليل محتوى هذه العلاقة يبرز مفارقة ما، تتمثل في ضرورة اعتبار القيمة ضمن هذه البرهنة الكفائية/ «البرهنة على ما لدينا من كفاية»، وليس فقط معالجتها وفق تدبير بيداغوجي محتوياتي، ويتجلى ذلك من خلال:

- المواقف والتقديرات التي نقوم بها اتجاه شخص أو فرد أو نشاط ما، وهو ما يمثل النمط أو الأساس القيمي لبناء الكفاية؛ من حيث كونه موجها لتنمية إمكانية واستعداد الشخص، غير أن هذه الأخيرة تبقى ذات صبغة معرفية/cognitive، لا سياقية[10].

- الإشكال الذي تعرفه التربية على القيم، هو في كيفية جعل هذه الأخيرة تنبعث من الذات، وليس خارجها فقط، حيث تفرض عليها فرضا من أجل إكسابها وترسيخها. وهو ما يتجلى في أدبيات التربية على القيم في جميع ديباجات كتبنا المدرسية بكل مستوياتها؛ حيث سمات الفصل بين الكفاية والقيمة في هذه الأخيرة واضحة وجلية .

- الاشتغال الكفائي في المقاربة البيداغوجية القائمة على الكفايات بوصفه اشتغالا على بناءين: خارجي وداخلي؛ الأول ينصرف نحو معالجة «أهداف التعلم» بشكل «ماكرو كفائي» يتناول مسألة تدبير الأهداف في علاقتها بالمجالات والوحدات،الخ؛ والثاني «ميكروكفائي» يتناول السيرورة البنائية للاشتغال الكفائي؛ توضحه الخطاطة التالية حيث نمطا هذا الاشتغال في علاقته بالأهداف والقيم معا[11]:

---

10 -Louis Toupin« ,Les composantes de la compétence,« in ,Eduquer et former ,Editions Sciences Humaines2) ,e édition), 2001, p .237.

11 - عمر بيشو، «من أجل نموذج كفائي للكتب المدرسية»، ضمن المؤلف الجماعي: التدريس بالكفايات رهان على جودة التعليم ، منشورات مجلة علوم التربية، العدد 9 ، الطبعة الأولى 2007، مطابع النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ص:144 -156 .

12- ibid.

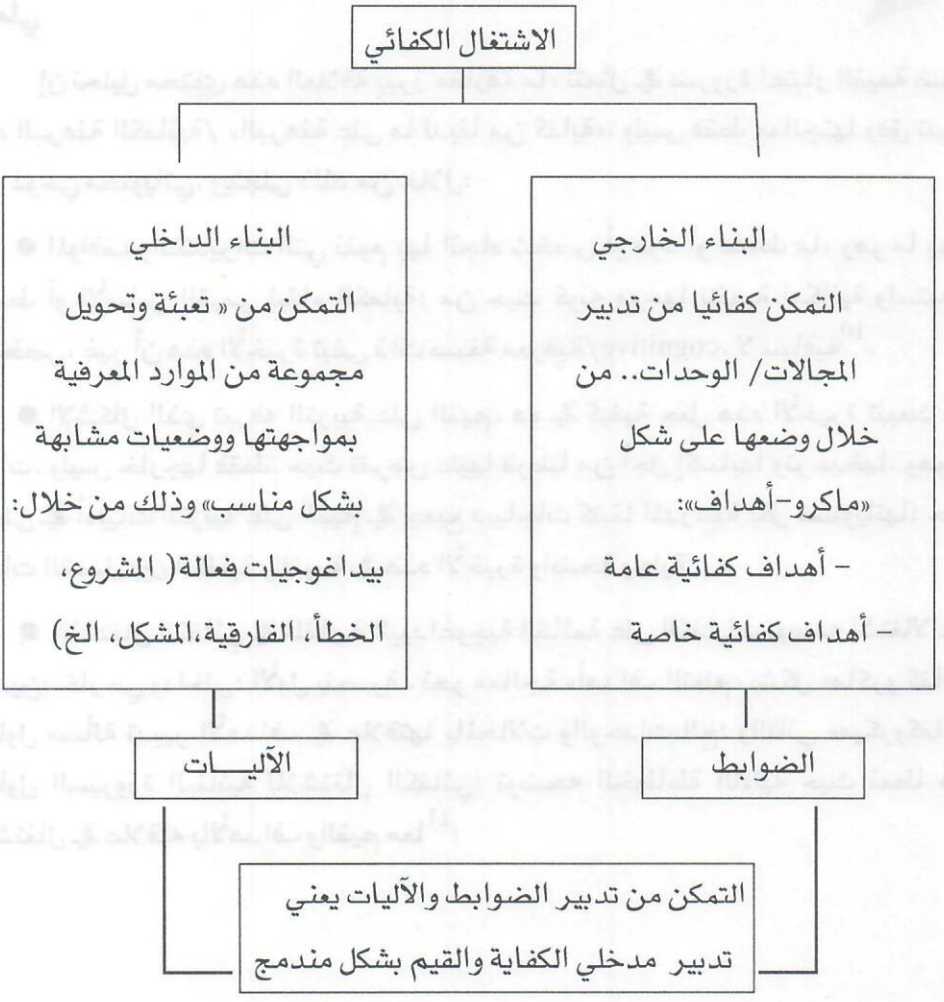

استنتاجات:

العلاقة بين الأهداف والكفايات، تشبه في غموضها، العلاقة التي بين هذه الأخيرة والقيم، إذ لا بد من إبراز مكونات بناء الكفاية وتشريح الفعل الكفائي حتى تبرز هذه العلاقات من خلال إبراز أبعادها الأربعة: الهدفي، الاستراتيجي، الذاتي، القيمي/الأكسيولوجي[12]. وعليه، فالذي يتحدى المقاربة بالكفايات وبالأساس وجهها العملي «الإدماج»، هو إبراز ذلك الوجه القيمي في سيرورة الفعل الكفائي ذاته، وذلك باعتبار البعد الاجتماعي الإنساني لهذا الأخير.

12- ibid.

كما أن المناسبة كممكن للمقاصد والمصالح، وكوجه عملي للشأن القيمي في التدبير الكفائي، يقتضي البحث في توسيع دلالاتها من خلال قضايا تجويد التصرف البشري، سواء من خلال بعدها التراثي المقاصدي في الحقل الثقافي الإسلامي،أو بعدها المعرفي البشري العلمي المعاصر، فيما يعرف بمجال درايات الفعل/ action'd Savoirs الذي يهتم بالتنظير للفعل البشري داخل حقول الممارسات(الشغل، التعليم، التكوين، الخ).

أضف إلى ذلك أن إصلاح المعرفة(إدغار موران) يقتضي ضرورة إيجاد بنية اشتغال تقوم على وصل آليات التدبير الكفائي بضوابطه، وليس فقط الارتكاز على إبراز الوجه العملي ذي الصبغة «الآلية» (التعبئة، التحويل، الإدماج)- كما تروج له الآن منظومتنا التربوية عبر ما يسمى ببيداغوجيا الإدماج- دون الإلمام بالوجه العملي الثاني المتعلق بضوابط هذا الاشتغال؛ أقصد استحضار البعد القيمي في التدبير الكفائي، التحدي الأكبر، والضامن الحقيقي لجودة الفعل الكفائي وفعالية التصرف البشري، تجاوزا للحمولة الدلالية المادية المنزوعة من القيم الأخلاقية للفظ «الكفاية»، حيث استعمالها يتم وفق منطق التحيز والفصل بين حكم الفعل وحكم القيمة، كأحد أبرز تجليات دواعي راهن إصلاح المعرفة في فكر ما بعد الحداثة.

بعبارة أخرى، إن سياق البحث في آليات التناظم، يقتضي العمل على الوصل بين آليات الاشتغال وضوابط هذا الأخير؛ أي ضرورة العمل على استدماج عنصر القيم في تدبير الوجه العملي في المقاربة الكفائية، بدل حصر وجهها الأخير في آليات اشتغالها فقط ك«الإدماج» مثلا؛ حيث التعامل مع القيم يتم وفق ما يتداول بصدد المعارف والمهارات، أي باعتبارها موارد للتعبئة، تقتضي هي الأخرى للتمكن منها كفائيا/ إدماجيا، أن ترسى موردیا فقط، كباقي موارد المواد الدراسية الأخرى؛ مما يعني انخراط القيم في لوبيات هذه الأخيرة.

التفكير في المناسبة/ Pertinence إذن، أضحى أمرا بحثيا ملحا وضروريا كآلية ضابطة لنجاعة الفعل الكفائي من خلال توسيع دلالات هذا المكون الكفائي في الحقل التداولي الغربي(جون ماري دي كوتيل، فيليب جونيير،الخ) ليشمل ذلك الذي للحقل الثقافي الإسلامي، وأساسا النظر الكفائي في الحقل المقاصدي؛ حيث تتمظهر الكفاية المقاصدية(الشاطبي) كآلية لتطوير الشرط الإنساني(إدغار موران) مثلا، وكنموذج حي لتناظم القيم الذي أسس له الميثاق الوطني للتربية والتكوين(قيم العقيدة الإسلامية، قيم الهوية الحضارية ومبادئها الأخلاقية، قيم المواطنة، قيم حقوق الإنسان ومبادئها الكونية).